الظواهر الصوتية في مرويات مدرسة البصرة اللغوية في تهذيب اللغة للأزهري (الإبدال أنموذجا)

The Phonological Phenomena in Basran Linguistic Transmissions through Al-Azhari's Tahdhib al-Lughah (Ibdāl as a Model)

Dr Madiha Sadiq

Assistant professor, Incharge Center of Teaching Arabic to non-natives, Faculty of Arabic, IIUI, Pakistan.
Postdoc fellow IRI, IIUI, Pakistan
Email: ***madiha.sadiq@iiu.edu.pk***

Abstract:

Language transcends being a mere assemblage of symbols; it constitutes the very soul of a civilization, and phonology represents its dynamic pulse. In the formative centuries of Islamic civilization, the city of Basra rose not only as a strategic frontier but as an epicenter of intellectual and linguistic innovation. The Basran school of grammar distinguished itself through rigorous analytical methodologies and an unwavering dedication to linguistic purity. It systematically codified the Arabic language, integrating theoretical precision with a robust oral tradition. Eminent scholars such as Al-Khalil ibn Ahmad—pioneer of Arabic prosody and compiler of the earliest Arabic lexicon—and his illustrious disciple Sibawayh, author of the foundational grammatical treatise Al-Kitab, epitomized this scientific endeavor.

This article explores the Basran linguistic legacy through the lens of Tahdhib al-Lugha by Al-Azhari, a seminal lexicon that not only conserves lexical data but also encapsulates the phonetic and philological insights characteristic of the Basran tradition. The study is structured in two principal sections: the first offers a theoretical and historical contextualization of the Basran school and Al-Azhari's lexicographical methodology; the second provides an analytical examination of pivotal phonological process—ibdāl (systematic phonetic substitution). By tracing this phenomena, the article reveals the Basran scholars' meticulous attention to phonetic nuance as a mechanism for ensuring linguistic clarity, textual integrity, and aesthetic precision.

Keywords: *Basran school of grammar, analytical methodologies, phonetic and philological insights ibdāl, textual integrity, and aesthetic precision.*

المدخل: إن الشعر العربي مرآة صافية لضمير الأمة، لا يكتفي بتصوير أحوالها، بل يوجّهها ويغذيها

إذا كانت اللغة وعاء الفكر، فإن الصوت هو بوابة هذا الوعاء ومفتاح أسراره. ومن بين المدارس اللغوية التي فتحت هذه البوابة بعقل تحليلي وإحساس لغوي بالغ الرهافة، برزت مدرسة البصرة، لا بوصفها تيارًا نحويًا فحسب، بل بوصفها عقلًا لغويًا مبدعًا، استطاع أن يؤسّس لصوت اللغة قبل رسمها، ولسماعها قبل تدوينها. فقد نشأت هذه المدرسة في

مدينة لم تكن مجرد نقطة على الخريطة، بل شاهد حضاري ناطق على قدرة العقل العربي حين يحتضن بيئة خصبة تجمع بين أصالة البادية، وعمق الفكر، وحيوية الترجمة .وفي هذه البيئة، بزغت أسماء عظيمة كالخليل

بن أحمد، وسيبويه، وعيسى بن عمر، ممن لم يكتفوا بجمع اللغة، بل نظّموا قوانينها، واستخرجوا عللها، وربطوا صوتها بالمعنى، والتحوّل السمعي ببنيتها الصرفية والنحوية.

وانطلاقًا من هذا الأفق العلمي، يأتي هذا البحث ليسلّط الضوء على المعالجات الصوتية في مرويات مدرسة البصرة، من خلال واحد من أمهات المعاجم العربية، وهو "تهذيب اللغة" للأزهري، الذي حفظ لنا قدرًا وافرًا من أثر المدرسة البصرية. وقد قُسّم البحث إلى فصلين متكاملين: يتناول الفصل الأول دراسة نظرية تسلّط الضوء على نشأة مدرسة البصرة، ومنهجها العلمي، وأعلامها، ثم يُعرّج على معجم "تهذيب اللغة"، مبرزًا قيمته الصوتية وموقعه من التراث اللغوي. أمّا الفصل الثاني، فهو دراسة تطبيقية تحليلية لظاهرة الإبدال، بوصفها من أدقّ ما عبّر عن طبيعة الصوت العربي في تحوّله وتشكّله، وكشفًا للمنهج البصري في التمييز بين الظاهرة الصحيحة، والانحراف السمعي أو البصري. وهكذا، فإن هذه الدراسة تسعى إلى إعادة وصل الحاضر بجذور الدرس الصوتي العربي، لا بوصفه ماضيًا منتهيًا، بل نسقًا حيًا نابضًا لا يزال يُدهش اللسانيين حتى اليوم.

الفصل الأول: دراسة نظرية عن المرويات اللغوية لعلماء البصرة وتعريف بتهذيب اللغة وصاحبه

أولا: المرويات اللغوية لعلماء البصرة في معجم تهذيب اللغة (مفهومه_ مدرسة البصرة وأعلامها ومنهجها_ مظاهر الاختلاف بين مدرستي البصرة والكوفة)

مفهوم المرويات اللغوية

المرويات جمع مروية، وهي اسم مفعول من روى يروي روايةً .والرواية في أصلها اللغوي تعني الاستقاء، ثم توسّع العرب في استخدامها فأطلقوها على حمل الشعر، والأنساب، والحديث، بل شملت طرق نقل القراءات وفروع العلم المختلفة، لما بين تلك المعاني من علاقة بالنقل والتبليغ. [1]

وقد ورد في أصل الاشتقاق: الراء والواو والياء أصلٌ واحدٌ، تُشتقّ منه الصيغ الأخرى. فالأصل ما كان ضدّ العطش، أي: شرب الماء حتى يزول العطش، ثم يُصرف هذا المعنى في الكلام لمن يحمل ما يُروى منه."فالأصل : رويتُ من الماء رِيًّا .وقال الأصمعي: رويتُ على أهلي أروي رِيًّا. وهو راوٍ من قومٍ رُواة، وهم الذين يأتونهم بالماء"[2].

ثم شُبّه بذلك من يأتي الناس بالعلم أو الخبر فيرويه، كأنه أتاهم بريٍّ من نوع آخر، فسُمي ناقل العلم "راويًا"، كما سُمّي بذلك ناقل الشعر، والقرآن، والنحو، واللغة؛ كأنّه يسقي القلوب بماء المعرفة. وقد تطور معنى الكلمة فدلّ على نظام نقل العلوم في الثقافة العربية، وخصوصًا علوم الرواية كالحديث، واللغة، والقراءات، وغيرها.

---

[1] مرويات أبي نصر الباهلي اللغوية في تهذيب اللغة للأزهري، لدكتور أبو العينين أستاذ أصول اللغة المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات فرع جامعة الأزهر بدمنهور، ص: 2086. منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية.

[2] مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج: 2، ص: 453، دار الفكر للطباعة والنشر.

أما في الاصطلاح اللغوي، فالرواية تعني :جمع المادة اللغوية من أفواه الفصحاء في البوادي، أو من العلماء الثقات في المجالس العلمية، وبذل الجهد في حفظها وروايتها والتصنيف فيها. وتُطلق "المرويات اللغوية" على ما جُمع من ألفاظ العرب وأساليبهم عن طريق السماع المباشر من أفواه الفصحاء، أو من العلماء الذين تلقّوها مشافهةً، وكان هدفها حفظ الفصيح من اللغة وضبطه وتوثيقه. وقد شكّلت هذه المرويات الأساس الذي بُنيت عليه المعاجم الأولى وعلوم النحو والصرف والبلاغة[3].

وقد لعبت مدرسة البصرة دورًا رياديًا في هذا الباب؛ إذ اعتمد علماؤها على الرواية الموثوقة، وغربلوا ما ورد عن العرب مستندين إلى شروط دقيقة، مثل: تقديم رواية الأعراب الأقحاح على رواية أهل الحواضر، ونبذ ما ورد عن غير الفصحاء أو ما خالف القياس اللغوي السليم.

وفي هذا المقال، نسلّط الضوء على المعالجات الصوتية في المرويات اللغوية لمدرسة البصرة، من خلال كتاب تهذيب اللغة للأزهري، متخذين من ظاهرة الإبدال نموذجًا. وسيقتصر البحث على المرويات الصوتية الواردة في الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب.

مدينة البصرة ونشأتها الحضارية والعلمية:

تُعدّ البصرة أول مدينة إسلامية أُنشئت في العراق بعد الفتح، فقد أسّسها الصحابي عتبة بن غزوان سنة 14هـ / 635م بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لتكون ثغرًا عسكريًا في مواجهة الفُرس، وميناءً حيويًا على الخليج العربي. [4] واسم "البصرة" مشتق من الأرض ذات الحجارة البيضاء، وقيل: من البصر، أي الإبصار، لأنها تُرى من بُعد. وقد وردت بثلاث لغات :بَصْرَة، وبِصْرَة، وبُصْرَة، وأكثرها شهرة :بَصْرَة بفتح الباء وسكون الصاد. [5]

تحوّلت البصرة مع مرور الزمن إلى منارة علمية كبرى، نبغ فيها الفقهاء والمحدّثون، وازدهرت فيها الحركة الأدبية واللغوية والفلسفية، كما أسهمت بيئتها المختلطة بانفتاحها على العنصر العربي الأصيل من سكان البادية، وعلى الثقافات الفارسية والهندية واليونانية عبر حركة الترجمة والعلم.

نشأة المدرسة البصرية ومنهجها العلمي: نشأت المدرسة البصرية في القرن الثاني الهجري، وكانت أول مدرسة لغوية تتخذ من التحليل العقلي والقياس منهجًا، ومن رواية الأعراب مصدرًا أصيلاً للغتها. اتسم منهج البصريين بالدقة والصرامة، وبتقديم القياس على الشاذ من السماع، والاقتصار على فصيح العرب من قبائل مخصوصة مثل تميم وقيس وأسد.

---

[3] مرويات أبي نصر الباهلي اللغوية في تهذيب اللغة للأزهري، لدكتور أبو العينين أستاذ أصول اللغة المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات فرع جامعة الأزهر بدمنهور، ص: 2086. منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية.

[4] مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها، للدكتور عبد الرحمن السيد، ص:24، توزيع دار المعارف بمصر.

[5] كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ص: 73، دار أحياء التراث العربي،طبعة جديدة، بيروت، لبنان.

كما اهتم البصريون بشرح العلل النحوية والصرفية، والبحث في أصول الظواهر الصوتية واللغوية، وربطها بقواعد عقلية منضبطة. ويقول بعض الباحثين إن "عقل البصرة أدق وأعمق من عقل الكوفة"،[6] من حيث الاستعداد لتسجيل الظواهر اللغوية وبناء القواعد؛ في حين كان الكوفيون أميل إلى السماع، وأكثر تساهلًا في قبول الشواذ واللهجات المختلفة[7].

أعلام المدرسة البصرية:

برز من هذه المدرسة عدد من الأعلام الكبار الذين أسّسوا قواعدها ووضعوا اللبنات الأولى للدرس النحوي والصوتي العربي، ومن أبرزهم

- **عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت: 117هـ)**

يُعدّ أول نحوي بصري حقيقي. قال فيه ابن سلام" :كان أول من بعج النحو، ومدّ القياس، وشرح العلل ." لم يكن من تلاميذ أبي الأسود الدؤلي، بل كان من القراء، ومعظم من جاء بعده من نحاة البصرة كانوا كذلك من القراء، مثل عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء. [8]

- **عيسى بن عمر الثقفي (ت: 149هـ)**

من موالي آل خالد بن الوليد، نزل في ثقيف فنُسب إليها. كان من أهم تلاميذ ابن أبي إسحاق، وله مؤلفات نحوية مفقودة، مثل :الإكمال والجامع .وصفه الخليل بن أحمد بأنه مؤسس بارع للنحو، فقال:

بَطَلَ النحوُ جميعًا كُلُّهُ

غيرَ ما أحدثَ عيسى بنُ عمرْ

ذاك إكمالٌ وهذا جامعٌ

فهُما للناسِ شمسٌ وقمرْ

يقول السيرافي: هذان الكتابان فقدا، لم ير أحد منا ولم يعثر عليهما.[9]

- **أبو عمرو بن العلاء(ت: 154هـ)**

واسمه زَبّان بن العلاء المازني التميمي .أحد أئمة اللغة والقراءات، وأحد القراء السبعة .قال عنه الجاحظ : "كان أعلم الناس بالغريب والعربية، وبالقرآن، والشعر، وأيام العرب."[10]

- **يونس بن حبيب (ت: 182هـ)**

---

[6] المدارس النحوية، للدكتور شوقي ضيف، ص:21، دار المعارف.

[7] مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها، للدكتور عبد الرحمن السيد، ص:24، توزيع دار المعارف بمصر.

[8] المدارس النحوية، للدكتور شوقي ضيف، ص:20-23.

[9] ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ج:2، ص:238،237، الطبعة الأولى، طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه.

[10] : المدارس النحوية، ص:28.

من موالي بني ضبة، وأحد تلاميذ أبي عمرو بن العلاء. روى عنه سيبويه، وأخذ عنه الكوفيون مثل الكسائي والفراء .كانت له حلقة علمية مشهورة بالبصرة، يرتادها الأعراب وطلاب اللغة. [11]

- **الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 175هـ)**

هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، أزهى عقول البصرة، وأنقى أذهان العرب، ينتمي إلى قبيلة الأزد، من أزدِ عُمان، وقد امتلك عقلاً يُشبه في صفائه جدولاً رقراقًا، لا يمرّ على شيءٍ إلا كشف خفاياه، ووضع له مقياسًا ونظامًا. فما من علمٍ قرعه إلا وطرّز له لباسًا من القوانين المحكمة، وما من ظاهرةٍ لغويةٍ لامسها إلا وأزال غبار العشوائية عنها، وكشف أسرارها بحسّه الرياضي العجيب. [12] لقد بسط الخليل سلطان عقله على النحو والتصريف والصوتيات، فأعاد بناء اللغة على قواعد صارمة لا تحتمل فوضى ولا شذوذ. وكان أول من نظر إلى اللغة نظرًا هندسيًا، يزن الكلمة بالحرف، والصوت بالمخرج، والمعنى بالبنية، حتى أصبح علم النحو بين يديه علمًا له روح وقانون، لا محض رواية وسماع. [13]

ومما يدل على عبقريته التي لا تُجارى، أنه هو واضع علم العَروض، فنقل الشعر العربي من فطرة الموهبة إلى فضاء الميزان، واستنبط له خمس دوائر عروضية استخرج منها خمسة عشر بحرًا شعريًا، وكأنما وضع مفاتيح الغناء العربي بين أصابع الدهر.

ولم يكتفِ الخليل بهذا؛ بل ألّف أول معجم صوتي في اللغة العربية، هو كتاب "العَين"، رتيب الحروف على ترتيب مخارجها، بادئًا بالحلق من حرف "العين"، منسجمًا مع طبائع الأصوات العربية لا مع ترتيب المصاحف أو الخط. وكان هذا المعجم، في زمانه، معجزة فكرية لا نظير لها، جمعت بين عبقرية الرؤية، ودقة النظام، وسعة الحفظ.

فهو بحقّ، كما قال عنه تلميذه سيبويه ضِمنًا، الرايةُ البيضاءُ في سماء النحو، والمؤسّس الأعظم لصرح العربية الخالد.

سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر، (ت: 180هـ تقريبًا)

هو عمرو بن عثمان بن قنبر، من أرض "البيضاء" في فارس، وقد لُقِّب بـ"سيبويه"، وهو لفظٌ فارسي يعني رائحة التفاح، حتى قال بعضهم: وُجنتاه كأنهما تفاحتان؛ لا لجمال صورته فحسب، بل لطيب فكره وصفاء منطقه.

نشأ سيبويه بالبصرة، وبدأ طريقه طالبَ علمٍ في الحديث، عند المحدث الجليل حماد بن سلمة، فلما لحن في حديث نبوي، اهتزّ قلبه لصفعة اللغة، وأيقن أن النحو ليس ترفًا، بل فريضة على كل طالب علم، فانصرف

[11] :ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، ص:365.

[12] : المعجم المفصل في اللغويين العرب، الدكتور إميل بديع يعقوب، ج: 1، ص:225، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[13] : وفيات الأعيان، أحمد بن محمد ابن خلكان، المحقق: إحسان عباس، ج1، ص 216-218، دار صادر، بيروت.

كليًّا إلى حلقات اللغة والنحو، ولازم الخليل بن أحمد، وأخذ عن يونس بن حبيب، والأخفش، وعيسى بن عمر، حتى صار تاج رأس المدرسة البصرية[14].

أما كتابه، الذي سمّاه الناس لاحقًا "الكتاب"، فقد كان بحق أهرام النحو العربي، لا يُضاهى في رصانته، ولا يُبارى في إحاطته، قال فيه الأزهري:"كان سيبويه علّامة، حسن التصنيف، جالس الخليل وأخذ عنه. وما علمت أحدًا سمع منه كتابه، لأنه مات مبكرًا، لكني نظرت فيه، فرأيت علمًا جمًّا."

"الكتاب" ليس مجرد مؤلَّف نحوي، بل هو دستور اللغة العربية، فيه عرضٌ للأصوات، وتحليل للبنية، وشرح للعلل، واستقراء للقياس، واحتجاج بالشعر، وسبرٌ لأغوار الكلام، كأنما اجتمع فيه فكر الخليل، وروح البصرة، وذاكرة البادية، ونبض العقول. فكان سيبويه تفاحتين نضجتا في ظلال الخليل، ولكنهما فاحتا بعبقٍ خاصّ لا يشبه أحدًا. [15]

المنهج العلمي لعلماء البصرة:

امتازت مدرسة البصرة بمنهج علمي رصين، يجمع بين الرواية الدقيقة والتحليل العقلي المنضبط .فقد أولى البصريون القياس اللغوي مكانة مركزية في بناء قواعد النحو والصرف، معتمدين على التعميم العقلي، بشرط الاستناد إلى كثرة الشواهد وصحة السماع.

وكان القياس عندهم مشروطًا بأن يكون مأخوذًا من فصيح العرب، وألا يخالف روايات الأعراب الأقحاح . ورفضوا كل ما شذ أو قلّ وروده، وكانوا يميزون بين المقبول والمردود بمنهج علمي دقيق.

وفي المقابل، لم يُغفِل البصريون الرواية الشفوية، بل جعلوها أساسًا لا يُستغنى عنه، شريطة أن تكون عن قبائل معروفة بالفصاحة مثل تميم، وهذيل، وقيس، وأسد. ورفضوا الأخذ عن أهل المدن والأعاجم، حفاظًا على نقاء اللغة. [16]

ومن أبرز ملامح منهجهم أيضًا اهتمامهم بالصوتيات، فقد درسوا ظواهر الإبدال، والإعلال، والإدغام دراسة علمية قائمة على استقراء دقيق واستنتاج منطقي .وبلغ هذا المنهج أوجه مع الخليل بن أحمد وسيبويه، اللذين وضعا اللبنات الأولى لعلم الصوتيات العربية، وربطوا بين الصوت والمعنى، وبين الحرف والبنية.

وكانت لغتهم علمية دقيقة منضبطة، تنأى عن الشذوذ والانحراف، وتسعى إلى تفسير الظواهر بـ"العلل" والتأصيل، وهو ما يظهر جليًّا في كتبهم الكبرى مثل كتاب العين والكتاب، وفي مروياتهم التي احتُفظ بها في المعاجم اللاحقة، وأهمها تهذيب اللغة للأزهري.

مظاهر الاختلاف بين مدرستي البصرة والكوفة:

---

[14] : ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج1، ص 487-488.، وأخبار النحويين البصريين، للسيرافي، ص 48-50.

[15] : ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ج:2، ص:229.

[16] : ينظر: المدارس النحوية، ص28.

رغم وحدة الهدف بين المدرستين البصرية والكوفيّة في حفظ اللغة وتقعيدها، إلا أن المنهج بينهما كان مختلفًا، بل متقابلًا في كثير من الأحيان. فقد مثّلت مدرسة البصرة المنهج العقلي المنظّم، القائم على دقة الرواية، وضبط القياس، والبحث عن العلل، بينما اتّسمت مدرسة الكوفة بالتسامح في الرواية والقياس، والتركيز على ما يُسمع ويُروى، ولو كان قليلاً أو شاذًا. [17]

اعتمد البصريون في روايتهم على الأعراب الأقحاح، وحرصوا على توثيق مصادرهم اللغوية من البادية، بينما توسع الكوفيون في أخذ اللغة عن قبائل متعددة، بل استشهدوا أحيانًا بالشعر المولّد واللهجات الحضرية. وفي الشواهد، اقتصر البصريون على الشعر الجاهلي والإسلامي، بينما لم يتورّع الكوفيون عن الاحتجاج بما جاء في العصور المتأخرة.

ومن حيث القياس، فضّل البصريون بناء القاعدة على الأصل المستقر، أما الكوفيون فكانوا أكثر ميلاً إلى الأخذ بالشاذ والنادر إن وجدوا له نظيرًا. وأما في التحليل، فإن المدرسة البصرية مارست التحليل المنطقي، واهتمت بالعوامل الصوتية والصرفية، بخلاف الكوفيين الذين لم يولوا هذه الجوانب ذات العناية المنهجية.

قال ابن جني في الخصائص" :للبصريين مناهج في القياس والتعليل لا تجاريهم فيها الكوفة"، وقال السيوطي:"البصريون أهل ضبط وتحقيق، والكوفيون أهل رواية وسماع". ولهذا عدّ أكثر الدارسين المدرسة البصرية أساسًا للنحو العربي، وإن كانت الكوفة قد أسهمت في إثراء النقاش وتوسيع دائرة الرواية. [18]

ثانيا: التعريف بتهذيب اللغة وصاحبه

أ) صاحب "تهذيب اللغة" أبو منصور الأزهري

هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي الشافعي (282–370هـ)، نسبة إلى جده "الأزهر"، و"الهروي" نسبة إلى مدينة هراة التي وُلد فيها، وهي إحدى كبريات مدن خراسان. كان فقيهًا شافعيًا، غلب عليه الاشتغال باللغة فاشتهر بها. [19]

وُلد سنة 282هـ (895م)، ونشأ بهراة، وتلقى بها علومه الأولى، وسمع من عدد من العلماء، منهم :الحسين بن إدريس، ومحمد بن عبد الرحمن السامي، وغيرهما. في سنة 312هـ، وأثناء عودته من الحج، اختطفته الأعراب في فتنة القرامطة، وكان عمره آنذاك نحو ثلاثين عامًا. مكث في الأسر زمنًا طويلًا بين الأعراب الخُلّص، وتعلم منهم ألفاظًا بدوية فصيحة، استوعبها في معجمه، وكان لهذا الاحتكاك أثر عميق في تكوينه اللغوي.

بعد فكاك أسره، توجه إلى بغداد، فتتلمذ على كبار علماء العربية، منهم:

---

[17] : ينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، الطبعة الثامنة، 2003م، ص 136-138، عالم الكتب.

[18] : ينظر: المدارس النحوية، ص 161-162.

[19] : ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ج5، ص313، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ج4، ص 379، دار ابن كثير دمشق، بيروت.

- إبراهيم بن محمد بن عرفة (نفطويه) (244–323هـ)،
- محمد بن السري بن سهل (ابن السراج) (ت 316هـ)،
- عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي (317–214هـ)

كما لقي الزجاج وأبا بكر الأنباري، إلا أنه لم يأخذ عنهما شيئًا. ثم عاد إلى هراة، وانشغل بالفقه الشافعي وعلوم اللغة، وتتلمذ على المنذري الهروي، وبدأ تدوين كتابه "تهذيب اللغة" مستفيدًا من التصانيف اللغوية المنتشرة في خراسان آنذاك، كتصانيف أبي تراب وأبي الأزهر.

وفاته: اتفق المؤرخون على أن الأزهري تُوفي في هراة سنة 370هـ، وقيل 371هـ، ولم تخرج الروايات عن هذين القولين.

ب) التعريف بـ"تهذيب اللغة"

يُعد "تهذيب اللغة" من أوثق المعاجم اللغوية، وهو موسوعة علمية ثقافية جامعة لفنون اللغة والقراءات والتفسير والحديث والنحو والأدب، ويعد من أهم مصادر الباحثين في اللغة العربية.

اسم المعجم وسبب التأليف:

ذكر الأزهري في مقدمته سبب التسمية فقال:

"وسميت كتابي هذا (تهذيب اللغة)؛ لأني قصدت بما جمعت فيه نفي ما أدخل في لغات العرب من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغتها، وغيّرها الغُتم عن سننها، فهذبت ما جمعت في كتابي من التصحيف والخطاء بقدر علمي، ولم أحرص على تطويل الكتاب بالحشو الذي لم أعرف أصله؛ والغريب الذي لم يسنده الثقات إلى العرب". [20]

وبيّن الأستاذ عبد السلام هارون في مقدمة تحقيقه للمعجم أن دوافع الأزهري للتأليف ثلاثة:

1. حرصه على حفظ النصوص التي تلقاها من أفواه العرب الذين عاش بينهم وقت أسره.
2. أداء واجب النصيحة لأهل العلم والمسلمين.
3. تصحيح ما لاحظه من دخيل وخطأ في كتب اللغة التي عجز أهل زمانه عن تمييز صوابها من خطئها.

ج) منهج الأزهري في "تهذيب اللغة":

اتبّع الأزهري المنهج الصوتي الذي سنّه الخليل بن أحمد في "العين"، حيث رتّب المعجم على مخارج الحروف ابتداءً من الأبعد فالأقرب، لكن مع اختلافات طفيفة، منها:

- الخليل جمع الواو، والياء، والهمزة في بابٍ واحد، أما الأزهري فقد جعل لها بابًا مستقلًا بعنوان "كتاب الحروف الجوف"، وأفرد الهمزة بباب خاص.

[20] تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، المحقق: محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى، 2001م، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج: 1، ص: 45.

- رتّب الأزهري كتابه بحسب حروف المعجم، وجعل كل حرف كتابًا، والحرف الثاني بابًا، مثلًا: "كتاب العين، باب العين والحاء."

نظام الترتيب في "تهذيب اللغة" جاء على النحو التالي:

1. المضاعف (كالعين مع الحاء).
2. الثلاثي الصحيح وفق التقليبات الممكنة.
3. الثلاثي المعتل، وألحق به المهموز.
4. اللفيف.
5. الرباعي.
6. الخماسي دون تنصيص على أبوابه.

د) المصادر اللغوية التي اعتمد عليها الأزهري:

ذكر الأزهري في مقدمته العلماء الذين نقل عنهم، وقسّمهم إلى خمس طبقات، وذكر آثارهم وكتاباتهم وآراءه فيهم.[21]

الطبقة الأولى :المفضل الضبي، أبو عمرو بن العلاء، خلف الأحمر.

الطبقة الثانية :سيبويه، الكسائي، الأحمر، النضر بن شميل، الفراء، الأصمعي، أبو عبيدة، الأخفش، أبو زيد الأنصاري، وغيرهم.

الطبقة الثالثة :ابن الأعرابي، الشيباني، السكيت، السجستاني، أبو عبيد القاسم بن سلام، وآخرون.

الطبقة الرابعة :شمر بن حمدويه، الرازي، المبرد، ثعلب.

الطبقة الخامسة :الزجاج، الأنباري، نفطويه.

الفصل الثاني: ظاهرة الإبدال في مرويات مدرسة البصرة اللغوية في تهذيب اللغة للأزهري

أوّلا: دراسة نظرية لظاهرة الإبدال

الإبدال في اللغة هو ظاهرة صوتية قديمة وعريقة، تجلّت في كلام العرب ونُقلت إلينا عبر المعاجم والكتب اللغوية المختلفة. وهو في اللغة مصدر "أبدل"، من المادة (ب–د–ل). وقد أشار ابن فارس إلى أن الأصل في هذه المادة هو قيام شيء مقام شيء آخر ذاهب، فيقال: هذا بدل الشيء أو بديله. ويُقال: بدلت الشيء

[21] : تهذيب اللغة، للأزهري، ج: 1، ص: 9، ، الطبعة الأولى: 2000م، دار أحياء التراث العربي.

إذا غيّرته، سواء أتيت ببديل له أم لا.[22] أما في الاصطلاح، فالإبدال يُعرف بأنه إقامة حرف مكان حرف آخر مع بقاء باقي الحروف على حالها.[23] وينقسم الإبدال إلى نوعين: صرفي ولغوي.

الإبدال الصرفي هو الذي يكون لضرورة صرفية أو صوتية، كطلب الخفة أو تحسين اللفظ. ويشيع هذا النوع في الأوزان الصرفية، وغالبًا ما يكون مطردًا ومنتظمًا في قواعد اللغة. من أمثلته: "ازدهر"، وهي من وزن "افتعل"، حيث أُبدلت التاء دالًا، فكان أصل الفعل "ازتهر". وكذلك الفعل "اصطبر" الذي أصله "اصتبر"، حيث أُبدلت التاء طاء. وإذا وقع الإبدال في حروف العلة، فإنه يُسمى "إعلالًا". الإبدال الصرفي يتسم بانتظامه وشيوعه في مواقع وأوزان معينة، مما يجعله عنصرًا مهمًّا في بنية الكلمة العربية.

أما الإبدال اللغوي، فهو الإبدال الذي يتم فيه استبدال حرف بحرف آخر في الكلمة دون وجود دافع صوتي أو صرفي، ويكون سماعيًا غير مطرد. وهذا النوع من الإبدال يعتمد على الروايات المأثورة عن العرب، ويختلف من قبيلة إلى أخرى. فعلى سبيل المثال، قد تقول إحدى القبائل "مدح" بالحاء، وأخرى تقول "مده" بالهاء. ومما ورد في هذا السياق قولهم: "هتنت السماء" و"هتلت"، و"هتن" و"هتل" سحائب. وهذا النوع من الإبدال هو محلّ اهتمام هذا البحث، لما فيه من أثر في اختلاف الروايات والمعاني أحيانًا.[24]

تتنوع صور الإبدال اللغوي في المعاجم وكتب اللغة، ويمكن تصنيفه إلى عدّة أقسام. من أبرزها الإبدال اللهجي، وهو ما يظهر من اختلاف لهجات القبائل في نطق الكلمات، وكان يُطلق عليه القدماء اسم "لغة"، ويسميه المحدثون "اللسان". ومن أمثلته ما ورد في "لسان العرب": "مخن الأديم والسوط: دلكه ومرنه، والحاء المهملة فيه لغة"،[25] أي أن "مخن" و"محن" لغتان لقبيلتين مختلفتين.

ومن أنواع الإبدال أيضًا الإبدال الدلالي، وهو ما يؤدي إلى تغيير في المعنى عند استبدال حرف بحرف. فعند القدماء لم يكن يُنظر إلى الإبدال من هذا الجانب، لكن عند المحدثين يُلاحظ أن بعض الإبدالات قد تكون مقصودة لتنويع الدلالة. مثال ذلك: "أومأ" أي أشار بالعين أو الحاجب، و"أوبأ" أي أشار باليد. كما أن هناك نوعًا من الإبدال يقع طلبًا للتخفيف، كما في "أومأ" و"أومى"، أو "سأل" و"سال"، حيث يُلاحظ أن حذف الهمزة في الأخير يُسهل النطق.

وقد يقع الإبدال بسبب عيوب في النطق أو اللثغة، كما نُقل في بعض المعاجم من ألفاظ مبدلة شكّ فيها العلماء بين كونها لهجة أم لثغة. ومن الطرائف ما ذكره الثعالبي عن قول الليث بن المظفر عن الخليل: "الذُّعاق

---

[22] مقاييس اللغة لابن فارس، ج1، ص 210.

[23] ينظر: الشافية في علم التصريف، جمال الدين، عثمان بن عمر، المعروف بابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) ويليها: «الوافية نظم الشافية» للنيساري (أتمها سنة ١١٣٣ هـ) المحقق: حسن أحمد العثمان الناشر: المكتبة المكية – مكة، ص13، الطبعة: الأولى، ١٩٩٥ م، وشرح شافية ابن الحاجب، ركن الدين الأستراباذي، ج2، ص848، وشرح الشافية للرضي، ج3، ص197.

[24] ينظر: دراسات في فقه اللغة، صبحي إبراهيم صالح، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1960م، ص 213-215.

[25] لسان العرب، لابن منظور، ج 13، ص 402، طبعة جديدة، دار المعارف القاهرة.

كالزُّعاق، سمعنا ذلك من عربي، وما ندري ألغة أم لثغة".[26] كما يرد أحيانًا نوع من الإبدال ناتج عن التصحيف، وهو نتيجة لخطأ في القراءة أو الكتابة، كما في قولهم: "تزَلَّعت رجله" أي تشققت (بالعين غير المعجمة)، ومن قال "تزلَّغت" بالغين فقد صحّف الكلمة.

وقد يندرج تحت الإبدال أيضًا ما يُسمى بإبدال الإتباع، وهو ما لا يُراد منه تغيير المعنى، بل يُستخدم لمجرد المحاكاة الصوتية أو التوكيد، كقولهم: "شذر ومذر"، [27] حيث تتكرر الأصوات بإيقاع صوتي مقصود دون أن يكون له تأثير دلالي واضح.

من النماذج الصوتية المهمة في هذا السياق الإبدال بين حرفي العين والميم، رغم اختلاف مخرجيهما، فالعين تخرج من وسط الحلق، والميم تخرج من الشفتين، إلا أن بينهما صفات صوتية مشتركة مثل الجهر والانفتاح والإصمات. العين حرف جهري متوسط، مستفل منفتح مصمت، بينما الميم حرف جهري رخو، منفتح مصمت أيضًا، مما يُبرر إمكان حدوث الإبدال بينهما في بعض السياقات أو اللهجات.

كذلك الأمر في الإبدال بين الضاد والظاء، فكلاهما حرفان فيهما جهر ورخاوة واستعلاء وإطباق وإصمات، إلا أن مخرجيهما مختلفان، فالضاد تخرج من إحدى حافتي اللسان أو كلتيهما مع ما يجاورها من الأضراس العليا، أما الظاء فتخرج من طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا. وتتميز الضاد بصفة الاستطالة أكثر من الظاء، وهو ما يجعل الإبدال بينهما نادرًا، لكنه ممكن في بعض الروايات أو عند اختلاط الصوتين على الناسخين والقراء. [28]

ومن خلال هذا العرض نلحظ أن ظاهرة الإبدال في اللغة العربية ظاهرة غنية ومعقدة في آنٍ معًا، فهي لا تقتصر على ما هو مطرد في علم الصرف، بل تشمل ما هو سماعي ومرتبط باللهجات واختلاف الألسنة. وقد حفظت المعاجم الكبرى، كـ"تهذيب اللغة" للأزهري، كثيرًا من هذه الظواهر، التي تحتاج إلى تتبّع وتحليل دقيق لفهم أصول الكلمات وتطورها عبر العصور. من هنا تأتي أهمية دراسة الإبدال اللغوي لا بوصفه مجرد ظاهرة صوتية، بل باعتباره أداة لفهم التنوّع اللغوي والتراث الصوتي الثري للعربية.

ثانيا: دراسة تطبيقية تحليلية لظاهرة الإبدال في مرويات مدرسة البصرة اللغوية في تهذيب اللغة للأزهري

1: عظّ، ومظّ

---

[26] ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، المحقق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨م، ج1، ص 434.

[27] ينظر: تاج العروس من ظواهر القاموس، محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي تحقيق: جماعة من المختصين من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت ج 14، ص 100، دار إحياء التراث، 2001م.

[28] ينظر: الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، عبد البديع النيرباني، ص 115-123، دار الغوثانى – دمشق الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م.

"عظَّ: قال يونس بن حبيب فيما قرأت له بخط شمر: يقال عظ فلان فلانًا بالأرض، إذا الزقه بها، فهو محظوظ بالأرض قال : والعِظاظ شبه المِظاظ، يقال: عاظَّه وماظَّه عظاظًا ومظاظًا إذا لاحاه ولاجّه. وقال أبو سعيد: العظاظ والعضاض واحد، ولكنهم فرقوا بين اللفظين لما فرقوا من المعنيين. ويقال عضته الحروب، وعظته بمعنى واحد." [29]

في إطار هذه الدراسة التطبيقية التحليلية لظاهرة الإبدال كما وردت في مرويات المدرسة البصرية في تهذيب اللغة، تمثل مادة "عظّ" وما تفرّع عنها من ألفاظ مثل "مظّ" و"عضّ" نموذجًا واضحًا لظاهرة الإبدال الصوتي التي نقلها الأزهري عن أعلام من مدرسة البصرة، وعلى رأسهم يونس بن حبيب وأبو سعيد. فقد ذكر الأزهري أن يونس بن حبيب قال" :العِظاظ شبه المِظاظ، يقال: عاظّه وماظّه عظاظًا ومظاظًا إذا لاحاه ولاجّه"، أي أن كلا الفعلين يفيدان المماحكة والمجالدة والمشقة، ويفيدان شدة المقاومة في المواقف الحربية أو الجدلية. [30] وهذا التماثل في المعنى يعكس إمكانية الإبدال بين العين والميم، رغم اختلاف المخرج، لتقارب صفاتهما الصوتية من حيث الجهر والانفتاح والإصمات. كما نقل الأزهري عن أبي سعيد أن "العظاظ والعضاض واحد، ولكنهم فرقوا بين اللفظين لما فرقوا من المعنيين"، أي أن الإبدال بين الظاء والضاد ممكن في هذا السياق، وهو ما ذهب إليه الخليل بن أحمد الفراهيدي في العين حين قال" :العظّ: الشدة في الحرب، كأنه من عضّ الحرب إياه"،[31] وأكد ذلك ابن فارس في مقاييس اللغة، معتبرًا هذا الإبدال صحيحًا من جهة الاشتقاق والمعنى. [32] كذلك ورد في تاج العروس" :كل عضّ بالأسنان فهو بالضاد، وما ليس بها كعظّ الزمان، فهو بالظاء"، مما يدل على أن بعض الإبدالات تخضع لضوابط دلالية وصوتية. [33] وهذا الترابط الدلالي والصوتي بين الكلمات الثلاث: "عظّ"، "عضّ"، و"مظّ"، يعكس سعة التنوع الصوتي واللهجي في المرويات البصرية، ويبرز مدى وعي علمائها بالفروق الدقيقة بين الأصوات، إذ لم يكن الإبدال في نظرهم محض تحوير صوتي، بل ظاهرة لغوية سمعية استندت إلى الرواية والنقل عن الفصحاء.

ويمتد هذا الإدراك الصوتي الدقيق إلى مقاربة بين العين والهمزة، فكلاهما من الحروف الحلقية، إلا أن الهمزة تخرج من أقصى الحلق، بينما العين تخرج من وسطه. الهمزة صوت شديد جهوري، والعين صوت مجهور احتكاكي مهتز. تقارب مخرجيهما، مع الفارق في الصفات، يفتح مجالًا للإبدال بينهما في بعض السياقات، وهو ما تؤيده شواهد لغوية أخرى، وتستدعي تحليلاً صوتيًا أعمق في ضوء الرواية لا القاعدة. [34] من هنا، يظهر كيف أسهم توثيق الأزهري لمثل هذه المواد في إبراز الجانب التطبيقي من منهج المدرسة البصرية في

---

[29] تهذيب اللغة، للأزهري، ج: 1، ص: 73.

[30] تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، ج:20، ص:236، التراث العربي سلسلة تصدرها وزارة الإعلام في الكويت.

[31] كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ص: 653، دار أحياء التراث العربي.

[32] مقاييس اللغة لابن فارس، ص: 665.

[33] تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، ج:20، ص:235.

[34] انظر: الأصوات اللغوية، د.إبراهيم أنيس، مدرس بكلية دار العلوم، ص: 75،76، ملتزم النشر مكتبة نهضة مصر، ومطبعها مصر.

التعامل مع ظاهرة الإبدال، حيث يقوم على الرواية والنقل، مع وعي دقيق بالفروق الصوتية، وتقدير لاختلاف اللهجات دون إخلال بسلامة الفصاحة.

2: الخبع والخبأ:

"خبع: وقال الليث: الخَبْعُ لغة تميم في الخبء. وامرأة خُبْعَةٌ خُبأة بمعنى واحد. قال: وخبع الصبي خبوعًا إذا فُحم من البكاء، أي انقطع نفسه." 35

وفي سياق الدراسة التطبيقية لظاهرة الإبدال كما تجلّت في مرويات المدرسة البصرية، تبرز مادة "خبع" و"خبأ " نموذجًا آخر من نماذج الإبدال الصوتي، يوثقه الأزهري في تهذيب اللغة من خلال رواية الليث بن المظفر، أحد علماء مدرسة البصرة، الذي قال" :الخبع لغة تميم في الخبء، وامرأة خُبعة خُبأة بمعنى واحد ." [36] ويُفهم من هذا النقل أن الهمزة أبدلت عينًا، وهي ظاهرة معروفة عند تميم تُسمى العنعنة .وقد أكد الخليل هذا المعنى في العين، إذ ذكر أن "الخبء بالهمز" هو الأصل، وتُبدل في لغة تميم إلى "خبع"، دون أن يورد المعنى، وهو ما استكمله الأزهري بإشارته إلى أن "خبع الصبي خبوعًا" تعني: انقطع نفسه من شدة البكاء، أي فُحم. كما أورد ابن فارس في مقاييس اللغة أن "خبع" ليس أصلًا مستقلًا، بل هو من باب الإبدال، حيث استُبدلت العين بالهمزة، وقال" :خبأتُ الشيء وخبعته بمعنى واحد"، مما يدل على تقارب المعنيين وتبادل الألفاظ بحسب اللهجة[37].

من الناحية الصوتية، فإن الإبدال بين الهمزة والعين يقوم على اشتراكهما في المخرج الحلقي، حيث تخرج الهمزة من أقصى الحلق، والعين من وسطه. الهمزة صوت شديد جهوري، والعين صوت مجهور احتكاكي مهتز، وهذا التشابه في المخرج مع اختلاف الصفة يفتح باب الإبدال بينهما، خاصة في بيئات لهجية معروفة مثل تميم، حيث يُلاحظ الميل إلى استبدال الهمزة بصوت أكثر ليونة في النطق. ويدعم هذا ما أورده القاموس المحيط وتاج العروس، من أن "الخبأ" يدل على الستر والإخفاء، سواء في وصف المرأة (مخبأة، أي لازمة بيتها) أو في الأشياء (خبأت المال، أي أخفيته).

وتتضح أهمية هذا المثال في سياق الدراسة، من جهة أنه يمثّل تطبيقًا عمليًا للإبدال الصوتي لا يقوم على قاعدة صرفية أو قياسية، بل على الرواية السمعية والنقل عن أفصح القبائل. كما يُبرز المثال دقة منهج الأزهري في نقل الأقوال بأمانة، إذ لم يورد في هذه المادة سوى رأي الليث، وهو بصري، مما يفنّد الادعاء الشائع بأن الأزهري كان يميل إلى النقل عن الكوفيين فقط. وفي هذا المقطع، يتضح انحيازه لمنهج المدرسة البصرية في اعتماد الرواية وتوثيق الظواهر الصوتية كما هي في الاستعمال، دون إخضاعها لقياس صناعي. لذا، فإن هذا النموذج يعزز فرضية البحث التي ترى أن الأزهري كان في معجمه ناقلًا أمينًا لروايات المدرسة البصرية، ومثبّتًا

---

[35] : تهذيب اللغة، للأزهري، ج:1، ص:117.

2: انظر: معجم العين، للفراهيدي، ص: 229،230، طبعة جديدة دار أحياء التراث العربي، بيروت،لبنان.

[37] : مقاييس اللغة، لابن فارس، ص: 242.

لما فيها من ظواهر صوتية لهجية، يأتي الإبدال الصوتي في مقدّمتها، لا بوصفه ظاهرة شاذة، بل كدليل على غنى اللغة وتعدّدها اللهجي.

3: الجعز، والجأز:

جعز:" قال ابن دريد: الجَعز والجَأز: الغصص؛ كأنه أبدل من الهمزة عينًا."[38]

وفي إطار هذه الدراسة التطبيقية لظاهرة الإبدال كما وردت في مرويات مدرسة البصرة اللغوية، تمثّل مادة "الجعز" و"الجأز "مثالًا دقيقًا على ظاهرة الإبدال الصوتي بين العين والهمزة، وهما من الحروف الحلقية التي يكثر فيها التبديل بسبب تقارب المخرج. فقد روى الأزهري في تهذيب اللغة عن ابن دريد–وهو من أعلام المدرسة البصرية–أن "الجعز والجأز" بمعنى واحد، وهو الغصص؛ أي ما يُصاب به المرء من ضيق في الحلق بسبب عسر البلع أو دخول الماء، مما يؤدي إلى اختناق مؤلم. وأشار ابن دريد إلى أن هذا التشابه اللفظي ناتج عن إبدال الهمزة عينًا، وهو ما يعكس إدراكًا صوتيًا دقيقًا لطبيعة هذا النوع من الإبدال.

وقد ورد هذا الرأي ذاته في لسان العرب، حيث جاء" :الجعز والجأز: الغصص، كأنه أبدل من الهمز عينًا. جَعِزَ جعَزًا كجَئِزَ: غصّ".، كما نقل المخصص عن ابن عبيد أن الجأز هو الغصص بالماء، وهي حالة لغوية شائعة في باب الأكل والشرب. وفي تاج العروس، أكّد الصاغاني أن هذه الرواية منقولة عن ابن دريد، موضحًا أن العرب أبدلوا من الهمز عينًا في بعض الاستعمالات، فجاءت "الجعز" بدل "الجأز"، ومعناهما واحد. أما من الناحية الصوتية، فالهمزة والعين يخرجان من الحلق، فالهمزة من أقصاه والعين من وسطه، وكلاهما صوتان جهوريّان، وإن كانت الهمزة شديدة والعين احتكاكية مهتزة، مما يفتح المجال أمام ظاهرة الإبدال السمعي الناتجة عن تقارب المخارج واختلاف صفات يسهل تداخلها في الأداء الصوتي السريع أو اللهجي.

إن أهمية هذا المثال في سياق البحث تكمن في أنه يعكس بدقة منهج المدرسة البصرية في نقل الظواهر الصوتية كما رُويت، لا كما قِيست، ويُبرز قدرة علماء البصرة، وعلى رأسهم ابن دريد، في ملاحظة الفروق الصوتية الطفيفة واستيعاب تنوّع الأداء الصوتي بين القبائل. كما يُظهر التزام الأزهري، في تهذيب اللغة، بنقل هذه الظواهر اعتمادًا على الرواية الموثوقة عن أعلام البصرة، ما يعضّد فرضية البحث بأن مرويات الأزهري في كثير من ظواهر الإبدال تعود إلى مصادر بصرية. وهكذا، فإن الجعز والجأز يشكّلان شاهدًا صوتيًا مميزًا على مرونة البنية الصوتية في اللغة العربية، كما تبلورت في المعاجم التراثية القائمة على الرواية السمعية لا على التنميط المدرسي.

4: اقلعطَّ، واقلعدّ:

[38] : تهذيب اللغة، ج1، ص222.

قلعط: الليث: اقلعطَّ الشعر واقلعّد. وهو الشعر الذي لا يطول ولا يكون إلا مع صلابة الرأس وأنشد: بأتلع مقلعطِّ الرأس طاطِ. [39]

وفي سياق هذه الدراسة التطبيقية لظاهرة الإبدال كما وردت في مرويات المدرسة البصرية في تهذيب اللغة، تبرز مادة "اقلعطَّ" و"اقلعدّ "مثالًا على الإبدال بين الطاء والدال، وهما صوتان من مخرج واحد، يُعرف بأنه طرف اللسان مع ما يحاذيه من أصول الثنايا العليا. وقد نقل الأزهري هذه المادة عن الليث بن المظفر البصري، حيث أورد أن الشعر "اقلعطَّ" أو "اقلعدّ"، أي لا يطول، ويكون ملازمًا لفروة الرأس، مجعَّدًا وصلبًا، وهو ما يتماشى مع خصائص الشعر المعروف عند بعض الأعراق كالزنج. وتؤيد هذه الرواية المعجمات الكبرى، كلسان العرب والعين، حيث ورد فيهما" :اقلعطَّ الشعر: جعد، ويقال اقلعطّ واقلعدّ، وهو الشعر الذي لا يطول ولا يكون إلا مع صلابة الرأس". [40]

من الناحية الصوتية، يتسم كل من الطاء والدال بثلاث صفات مشتركة هي: الجهر، والشدة، والقلقلة، في حين تختلفان في صفتين محوريتين هما: الاستعلاء والإطباق في الطاء، مقابل الاستفال والانفتاح في الدال. ورغم هذا الاختلاف، فإن تقاربهما في المخرج واشتراكهما في بعض الصفات يجعل من الممكن حدوث إبدال صوتي بينهما، خصوصًا في البيئات اللهجية التي لا تولي عناية دقيقة بالاستعلاء أو الإطباق. ويُفهم من ذلك أن "اقلعطّ" و"اقلعدّ" ليستا كلمتين مستقلتين في المعنى، بل هما صورتان صوتيتان لكلمة واحدة، تنتمي إلى نفس الحقل الدلالي.

ويمثل هذا المثال دليلاً آخر على منهج المدرسة البصرية في اعتماد الرواية الشفوية في تتبع الظواهر الصوتية، لا سيما حين ينقل الأزهري عن الليث–وهو من البصريين–معززًا بذلك اتجاهه في تمثيل التراث البصري رغم ما يُشاع من انتمائه الكوفي. كما يبيّن هذا المثال المرونة الصوتية التي كانت سائدة في لهجات العرب، والتي انعكست بوضوح في كتب المعاجم. وعليه، فإن مادة "اقلعطّ / اقلعدّ" تُعدّ تطبيقًا واضحًا لظاهرة الإبدال، وتكشف عن البنية الصوتية النشطة التي ميزت معاجم المدرسة البصرية، وأسهمت في توثيق مظاهر التنوع الصوتي في اللغة العربية.

5: عكلط، وعكلد:

عكلط: الليث لبن عُكِلط وعُكِلد: خاثر.

أبو عبيد عن الأصمعي: إذا خَثُر اللبن جدًا وتكبد فهو عُكِلط، وَعُجَلط، وعُثِلط. [41]

يقدّم المثال اللغوي "عكلط / عكلد / عجلط / عثلط" نموذجًا غنيًّا لتجلّي ظاهرة الإبدال الصوتي في المعجم العربي، كما يظهر في كتاب تهذيب اللغة للأزهري. وتكمن أهمية هذا المثال في أنّ الألفاظ الأربعة المذكورة

[39] : تهذيب اللغة، للأزهري، ج:3، ص:183.

[40] : انظر: معجم العين، للفراهيدي، ص: 293، و لسان العرب لابن منظور، ص: 3725.

[41] : تهذيب اللغة،ج3، ص195.

تدور حول معنى واحد هو اللبن الخاثر أو الغليظ، لكنها تتنوّع بحسب لهجات القبائل واختلاف النطق الصوتي، مما يجعلها مادة خصبة لدراسة الإبدال. فقد أورد الأزهري مادة "عكلط" عن الليث، وذكر أنها تعني اللبن الخاثر، كما نقل عن أبي عبيد – نقلاً عن الأصمعي – أنها تأتي بصيغ أخرى مثل "عجلط" و"عثلط"، وكلها تدل على اللبن الذي تكبّد وخثر.

تحليل هذه الألفاظ صوتيًّا يكشف عن ظواهر إبدالية متعددة .الإبدال الأول يتمثل بين الطاء والدال في "عكلط" و"عكلد"، وهما حرفان يشتركان في المخرج (طرف اللسان وأصول الثنايا العليا) وفي عدد من الصفات الصوتية (كالجهر، الشدة، والقلقلة)، مما يجعل الإبدال بينهما طبيعيًا ومألوفًا في العربية. أما الإبدال الثاني فيتجلى بين الكاف والجيم والثاء في "عكلط"، "عجلط"، و"عثلط"، وهي حروف تتباين في المخرج لكنها تتقارب في صفات أخرى كالشدة أو الرخاوة، والهمس أو الجهر. وقد يفسَّر هذا التعدد في الأداء الصوتي بأنه انعكاس لتنوّع اللهجات العربية القديمة، لا سيما عند القبائل التي تمثّل مادة الدراسة الصوتية للمُعجِمين[42].

من جهة أخرى، يُبرز هذا المثال منهج الأزهري في التوثيق الصوتي، حيث لا يقتصر على تدوين الكلمة برسمها الشائع، بل يحرص على إثبات رواياتها المختلفة وفق السماع، مؤكدًا أصالة هذه الفوارق الصوتية. وقد نقل الأزهري هذه المادة عن الليث بن المظفر وهو بصري، كما نقلها عن أبي عبيد، الذي بدوره ينقل عن الأصمعي، أحد أئمة المدرسة البصرية، ما يعزز الاتجاه القائل بأن الأزهري كان يوثق الروايات البصرية على نحو واضح، رغم ما يُشاع عن ميله إلى النقل عن الكوفيين.

[42] ينظر: معجم العين: ج3، ص211، وتاج العروس: ج19،ص483.

نتائج البحث:

كشفت هذه الدراسة أن الأزهري في تهذيب اللغة لم يكن مجرد ناقل لمواد معجمية، بل كان باحثًا صوتيًّا واعيًا يوثق الظواهر اللهجية بدقة منهجية. وأوضحت الأمثلة التي تناولها البحث–مثل (عكلط/عكلد)، و(جعز/جأز)، و(اقلعط/اقلعد)، و(عجلط/عثلط)–أن الأزهري لم يتعامل مع الإبدال بوصفه خطأً لغويًا، بل سجّله بوصفه ظاهرة طبيعية ناتجة عن تقارب مخارج الحروف وصفاتها. وقد دلّ اعتماده على أعلام بصريين كابن دريد، والليث، والأصمعي، وأبي سعيد السيرافي، على قوة تأثير المدرسة البصرية في عمله، رغم ما يُشاع من انتمائه الكوفي.

كما اتضح أن الأزهري يقدّم الإبدال الصوتي وفق منهج يعتمد على الرواية الشفوية عن فصحاء العرب، دون إخضاع الظواهر لقواعد صرفية صارمة، وهو ما يعكس التوجه البصري القائم على الاستقراء السمعي. وبالتالي، فإن تهذيب اللغة يمثّل مصدرًا غنيًّا لفهم التنوع الصوتي في العربية، ويبرز الإبدال بوصفه أداة علمية لفهم البنية الصوتية للهجات العرب، لا ظاهرة عرضية أو شاذة.

تُظهر هذه النتائج بوضوح أن الأزهري كان ناقلًا دقيقًا لتراث المدرسة البصرية في صوتيات العربية، وأن عمله يُعدّ مرجعًا لغويًا حيًّا يسهم في فهم تطور اللغة وأدائها الشفوي في البيئة العربية المبكرة.